﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

يريد أن يُوبِّخهم : اتظنون أنكم ستخلُدون فى هذا النعيم ، وأنتم آمنون ، أو أنكم تأخذون نِعَم الله ، ثم تفرُّون من حسابه ، كما قال سبحانه :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون]

فمَنْ ظن ذلك فهو مخطىء قاصر الفهم ؛ لأن الأشياء التى تخدمك فى الحياة لا تخدمك بقدرة منك عليها ، فأنت لا تقدر على الشمس فتأمرها أنْ تشرق كل يوم ، ولا تقدر على السحاب أن ينزل المطر ، ولا تقدر على الأرض أن تعطيها الخصوبة لتنبت ، ولا تقدر على الهواء الذى تتنفسه .. إلخ وهذه من مُقوِّمات حياتك التى لا تستطيع البقاء بدونها .

وكان من الواجب عليك أن تتأمل وتفكر : مَن الذى سخرَّها لك ، وأقدرك عليها ؟ كالرجل الذى انقطع فى الصحراء وفقد دابته وعليها طعامه وشرابه حتى أشرف على الهلاك ، ثم أخذته سنَة أفاق منها على مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، بالله ، أليس عليه قبل أنْ تمتد يده إليها أنْ يسأل نفسه : مَنْ أعدّ لى هذه المائدة فى هذا المكان ؟

كذلك أنت طرأتَ على هذا الكون وقد أُعدَّ لك فيه كل هذا الخير ، فكان عليك أن تنظر فيه ، وفيمَنْ أعدّه لك . فإذا جاءك رسول من عند الله ليحلَّ لك هذا اللغز ، ويخبرك بأن الذى فعل كل هذا هو الله ، وأن من صفات كماله كذا وكذا ، فعليك أن تُصدِّقه .

لأنه إما أن يكون صادقاً يهديك إلى حَلٍّ لغز حار فيه عقلك ، وإما هو كاذب ـ والعياذ بالله وحاشا لله أن يكذب رسول الله على الله

ـ فإن صاحب هذا الخلق عليه أن يقوم ويدافع عن خَلْقه .

ويقول : هذا الرسول مُدَّعٍ وكاذب ، وهذا الخَلْق لى . فإذا لم يقُمْ للخَلْق مُدَّعٍ فقد ثبتتْ القضية لله تعالى إلى أنْ يظهر مَنْ يدَّعيها لنفسه .

﴿ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) ﴾ [الشعراء] امتداد للآية السابقة ، يعنى : لا تظنوا أن هذا يدوم لكم . و (جنات) : جمع جنة ، وهى المكان الملىء بالخيرات ، وكل ما يحتاجه الإنسان ، أو هى المكان الذى إنْ سار فيه الإنسان سترتْه الأشجار ؛ لأن جنَّ يعنى ستر . كما فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ .. (٧٦) ﴾ [الأنعام] أى : ستره .

ومنه الجنون . ويعنى : سَتْر العقل . وكذلك الجنة ، فهى تستر عن الوجود كله ، وتُغنيك عن الخروج منها إلى غيرها ، ففيها كل ما تتطلبه نفسك ، وكل ما تحتاجه فى حياتك .

ومن ذلك ما نسميه الآن (قصراً) لأن فيه كل ما تحتاجه بحيث يقصرك عن المجتمع البعيد .

وقال بعدها : ﴿ وَعُيُونٍ (١٤٧) ﴾ [الشعراء] لأن الجنة تحتاج دائماً إلى الماء ، فقال ﴿ وَعُيُونٍ (١٤٧) ﴾ [الشعراء] ليضمن بقاءها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

النخل من الزروع ، لكن خصَّ النخل بالذِّكْر ، لأن رسول الله ﷺ اهتم به ، وشبَّهه بالمؤمن فى الحديث : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها »[1] قال الراوى : فوقع الناس فى شجر البوادى ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١ ، ٩ مواضع أخرى) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١١) كتاب صفات المنافقين . وأحمد فى مسنده (٢/٦١ ، ١٢٣) من حديث عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما .

ولم يهتدوا إليها ، فلما خرج عمر وابنه عبد الله قال : يا أبى ، لقد وقع فى ظنى أنها النخلة ؛ لأنها مثل المؤمن كل ما فيه خير .

نعم لو تأملتَ النخلة لوجدتَ أن كل شيء فيها نافع ، وله مهمة ، وينتفع الزارع به ، ولا يُلْقَى منها شيء مهما كان بسيطاً . فالجذوع تُصنع منها السوارى والأعمدة ، وتُسقف بها البيوت قبل ظهور الخرسانة ، ومن الجريد يصنعون الأقفاص ، والجزء المفلطح من الجريدة ويسمى (القحف) والذى لا يصلح للأقفاص كانوا يجعلونه على شكل معين ، فيصير (مقشّة) يكنسون بها المنازل .

ومن الليف يصنعون الحبال ، ويجعلونه فى تنجيد الكراسى وغيرها ، حتى الأشواك التى تراها فى جريد النخل خلقه الله لحكمة وبقدَر ؛ لأنها تحمى النخلة من الفئران أثناء إثمارها ، والليف الذى ينمو بين أصول الجريد جعله الله حماية للنخلة ، وهى فى طور النمو ، وما تزال غَضَّة طرية ، فلا يحمى بعضها على بعض .

إذن : هى شجرة خيِّرة كالمؤمن ، وقد تم أخيراً فى أحد البحوث أن أخذوا الجزء الذى يسمى بالقحف ، وجعلوه فى تربة مناسبة ، فأنبتوا منه نخلة جديدة .

لذلك لما قال ابن عمر : إنها النخلة . ذهب عمر إلى رسول الله ، وحكى له مقالة ولده ، فقال ﷺ : « صدق ولدك » فقال عمر : (فوالله ما يسرنى أن فَطِن ولدى إليها أن لى حمر النعم)[1] .

---

(١) قال ابن عمر لأبيه عمر : ذكرت ذلك لعمر ، قال : « لأن تكون قلت : هى النخلة ، أحبّ إلىّ من كذا وكذا » وهو لفظ مسلم . وفى رواية عند أحمد (١٢٣/٢) أن عمر قال لابنه : « يا بنى ، ما منعك أن تتكلم . فو الله لأن تكون قلت ذلك أحب إلىّ من أن يكون لى كذا وكذا » .

والذين يزرعون النخيل يروْنَ فيه آيات وعجائب دالّة على قدرة الله تعالى .

ومعنى ﴿ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الشعراء] الطَّلْع : هو الكوز الذى تخرج منه الشماريخ فى الأنْثى ويخرج منه المادة المخصبة فى الذكر ، والتى قال الله عنها : ﴿ قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ .. ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام]

وفى الذَّكر يخرج من الكوز المادة المخصِّبة للنخلة ، وللقنْوان أو الشماريخ أطوار فى النمو يُسمُّونه (الخلا) ، فيظل ينمو ويكبر إلى أنْ يصل إلى نهايته حَدّاً حيث يجمد على هذه الحالة ، ويكتمل نموه الحجمى ، ثم تبدأ مرحلة اللون .

يقولون (عفَّر) النخل : يعنى شاب خضرته حمرة أو صفرة[1] . فإذا اكتمل احمرار الأحمر واصفرار الأصفر ، يسمى (بُسْر) ثم يتحول البُسْر إلى (الرطب) حيث تلين ثمرته وتنفصل قشْرته ، فإنْ كان الجو جافاً فإنَّ الرُّطَب ييْبس ، ويتحول إلى (التمر) حيث تتبخَّر مائيته ، وتتماسك قشْرته ، وتلتصق به .

ومعنى ﴿ هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : غَضٌّ ورَطْب طرىٌّ ، وهذا يدل على خصوبة الأرض ، ومنه هضم الطعام حتى يصير ليِّنا مُسْتساغاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ[2] ﴿١٤٩﴾ ﴾

---

(١) العفَار : تلقيح النخل وإصلاحه ، وعفَّر النخل : فرغ من تلقيحه . [لسان العرب - مادة : عفر] .

(٢) هذه الكلمة فيها قراءتان :

- فرهين : بغير ألف ، قراءة ابن كثير وأبى عمرو ونافع .
- فارهين . بالف . وهى قراءة الباقين . قاله القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٠٠٩) . قال أبو عبيد وغيره : وهما بمعنى واحد . وقال الفراء : معنى فارهين : حاذقين . والفره : النشيط الأشر . والفراهة : النشاط . [انظر لسان العرب - مادة : فره] .

وحين تذهب إلى مدائن صالح تجد البيوت منحوتةً في الجبال كما ينحتون الآن الأنفاق مثلاً ، لا يبنونها كما نبني بيوتنا ، ومعنى ﴿فَارِهِينَ (١٤٩)﴾ [الشعراء] الفاره : النشط القوى ظاهر الموهبة ، يقولون : فلان فاره في كذا يعني ؛ ماهر فيه ، نشط في ممارسته .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١)﴾

المسرف : هو الذى يتجاوز الحدَّ ، وتجاوز الحدِّ له مراحل ؛ لأن الله تعالى أحلَّ أشياء ، وحرَّم أشياء ، وجعل لكل منهما حدوداً مرسومة ، فالسَّرَف فيما شرع الله أن تتجاوز الحلال ، فتُدخل فيه الحرام .

أو : يأتى الإسراف فى الكَسْب فيدخل فى كَسْبه الحرام . وقد يُلزم الإنسان نفسه بالحلال فى الكسب ، لكن يأتى الإسراف فى الإنفاق فينفق فيما حرَّمه الله . إذن : يأتى الإسراف فى صور ثلاثة : إما فى الأصل ، وإما فى الكسب ، وإما فى الإنفاق .

ونلحظ أن الحق - تبارك وتعالى - حينما يكلمنا عن الحلال ، يقول سبحانه : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩)﴾ [البقرة]

أما فى المحرمات فيقول سبحانه : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧)﴾ [البقرة] أى : ابتعد عنها ؛ لأنك لا تأمن الوقوع فيها ، ومَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . فلم يقل الحق سبحانه مثلاً : لا تُصلُّوا وأنتم سكارى . إنما قال : ﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ .. (٤٣)﴾ [النساء]

والمعنى : خُذ الحلال كله ، لكن لا تتعداه إلى المحرَّم ، أما المحرَّم فاحذر مجردَ الاقتراب منه ؛ لأن له دواعى ستجذبك إليه .

ونقف عند قوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١)﴾ [الشعراء] حيث لم يقل : ولا تسرفوا ، وكأن ربنا - عزَّ وجلَّ - يريد

أنْ يُوقظ غفلتنا ويُنبِّهنا ويُحذِّرنا من دعاة الباطل الذين يُزيِّنون لنا الإسرافَ في أمور حياتنا ، ويُهوِّنون علينا الحرام يقولون : لا بأس في هذا ، ولا مانع من هذا ، وهذا ليس بحرام . ربنا يعطينا المناعة اللازمة ضد هؤلاء حتى لا ننساق لضلالاتهم .

لذلك جاء في الحديث الشريف : « استفت قلبك ، واستفتِ نفسك ، وإنْ أفتوك ، وإنْ أفتوك ، وإنْ أفتوك »[1] .

وفي هذا دليل على أنه سيأتي أناس يُفتون بغير علم ، ويُزيِّنون للناس الباطل ، ويُقنعونهم به . والفتوى من الفُتوة والقوة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) ﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) ﴾ [الكهف]

كذلك الفتوى تعني : القوة في أمر الدين والتمكُّن من مسائله وقضاياه ، وإنْ كانت القوة المادية في أمر الدنيا لها حَدٌّ تنتهي عنده فإنَّ القوة في أمر الدين لا تنتهي إلى حَدٍّ ، لأن الدين أمدُه واسع ، وبحره لا ساحلَ له . والقوة نعرفها في أي ناحية من النواحي ، لكن قوة القوى هي القوة في أمر الدين .

نقول : فلان فتيٌّ يعني : قويٌّ بذاته ، وأفتاه فلان أي : أعطاه القوة ، كأنه كان ضعيفاً في حُكم من أحكام الشرع ، فذهب إلى المفتي فأفتاه يعني : أعطاه فتوة في أمر الدين . مثل قولنا : غَنِيَ فلان أي : بذاته ، وأغناه أي : غيره ، كما يقول سبحانه : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. (٧٤) ﴾ [التوبة]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/٢٢٧، ٢٢٨) والدارمي في سننه (٢/٢٤٦) من حديث وابصة بن معبد الأسدي ، وتمامه أن رسول الله ﷺ قال : « يا وابصة ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس . قال سفيان : وأفتوك » .

إذن : فمهمة المفتى أن يُقوِّى عقيدتى ، لا أن يسرف لى فى أمر من أمور الدين ، أو يُهوِّن علىَّ ما حرَّم الله فيُجرِّئنى عليه . وعلى المفتى أن يتحرَّى الدقة فى فتواه خاصة فى المسائل الخلافية التى يقول البعض بحلِّها ، والبعض بحرمتها ، يقف عند هذه المسائل وينظر فيها رأى الإسلام المتمثل فى الحديث الشريف :

« الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مُشْتبهات ، فمن ترك ما شُبِّه له - لا من فعل ما شُبِّه له يعنى على الأقل نترك ما فيه شبهة - فقد استبرأ لدينه - إن كان متديناً - وعِرْضه - إن لم يكُنْ متديناً »[1] .

إذن : مَنْ لم يقف هذا الموقف ويترك ما فيه شبهة لم يستبرىء لدينه ولا لعِرْضه . ومَنْ لم يُفْتِ على هذا الأساس من العلماء فإنما يُضعِف أمر الدين لا يُقوِّيه ، وبدل أن نقول : أفتاه . نقول : أضعفه .

﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

فوصف المسرفين بأنهم مفسدون فى الأرض غير مصلحين ، كأن الأرض خلقها الخالق - عز وجل - على هيئة الصلاح فى كل شىء ، لكن يفسدها الإنسان بتدخُّله فى أمورها ؛ لذلك سبق أن قلنا : إنك لو نظرتَ إلى الكون من حولك لوجدته على أحسن حال ، وفى منتهى الاستقامة ، طالما لا تتناوله يد الإنسان ، فإنْ تدخَّل الإنسان فى شىء ظهرتْ فيه علامات الفساد .

ولا يعنى هذا ألاَّ يتدخل الإنسان فى الكون ، لا إنما يتدخل على

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير .

منهج مَنْ خَلَقَ فيزيد الصالح صلاحاً ، أو على الأقل يتركه على صلاحه لا يفسده ، فإن تدخَّل على غير هذا المنهج فلا بُدَّ له أن يفسد .

فحين تمر مثلاً ببئر ماء يشرب منه الناس ، فإما أنْ تُصلح من حاله وتزيده ميزة وتُيسِّر استخدامه على الناس ، كأن تبنى له حافّة ، أو تجعل عليه آلة رَفْع تساعد الناس ، أو على الأقل تتركه على حاله لا تفسده ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) ﴾ [البقرة]

أما هؤلاء القوم فلم يكتَفِ القرآن بوصفهم بالفساد وحسب ، إنما أيضاً هم ﴿ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢) ﴾ [الشعراء] ذلك لأن الإنسان قد يُفسد فى شىء ، ويُصلح فى شىء ، إنما هؤلاء دأبهم الفساد ، ولا يأتى منهم الصلاح أبداً .

ونكبة الوجود من الذين يصنعون أشياء يروْنها فى ظاهرها صلاحاً ، وهى عَيْن الفساد ؛ لأنهم لم يأخذوها بكل تقنيناتها القيمية ، وانظر مثلاً إلى المبيدات الحشرية التى ابتكروها وقالوا : إنها فتح علمى ، وسيكون لها دور كبير فى القضاء على دودة القطن وآفات الزرع ، وبمرور الزمن أصبحت هذه المبيدات وبالاً على البشرية كلها ، حيث تسمَّم الزرع وتسمَّم الحيوان ، وبالتالى الإنسان ، حتى الماء والتُّرْبة والطيور ، لدرجة أنك تستطيع القول أنها أفسدت الطبيعة التى خلقها الله .

وفى هؤلاء قال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ١٥٣ ﴾

﴿ الْمُسَحَّرِينَ ١٥٣ ﴾ [الشعراء] جمع مُسحَّر ، وهى صيغة مبالغة تدلُّ على وقوع السحر عليه أكثر من مرة ، نقول : مسحور يعنى : مرة واحدة ومُسَحَّر يعنى عدة مرات ، ومن ذلك قوله تعالى عن ملأ فرعون أنهم قالوا له : ﴿ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ٣٧ ﴾ [الشعراء]

ولم يقل : بكل ساحر ، إنما سحَّار يعنى : هذه مهنته ، وكما تقول : ناجر ونجار ، وخائط وخياط .

وإنْ كان بعضهم قال عن نبيهم : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ٤٧ ﴾ [الإسراء] فهؤلاء يقولون لنبيهم ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٥٣ ﴾ [الشعراء] وعجيب أمر أهل الباطل ؛ لأنهم يتخبطون فى هجومهم على الأنبياء ، فمرَّة يقولون : ساحر . ومرة يقولون : مسحور ، كيف والساحر لا يكون مسحوراً ؛ لأنه على الأقل يستطيع أن يحمى نفسه من السحر . قالوا : بل المراد بالمسحور اختلاط عقله ، حتى إنه لا يدرى ما يقول .

ثم إن نبيكم صالحاً - عليه السلام - إنْ كان مسحوراً فمَنْ سحره ؟ أنتم أم أتباعه ؟ إنْ كان سحره منكم فأنتم تقدرون على كَفِّ سحركم عنه ، حتى يعود إلى طبيعته ، وترونه على حقيقته ، وإنْ كان من أتباعه ، لا بُدَّ أنهم سيحاولون أنْ يعينوه على مهمته ، لا أن يُقعدوه عنها .

إذن : فقولهم لنبيهم : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٥٣ ﴾ [الشعراء]

يريدون أن يخلُصُوا إلى عدم اتباعه هو بالذات ، فهم يريدون تديُّناً على حسب أهوائهم ، يريدون عبادة إله لا تكليفَ له ولا منهج . كالذين يعبدون الأصنام وهم سعداء بهذه العبادة ، لماذا ؟

لأن آلهتهم لا تأمرهم بشيء ولا تنهاهم عن شيء . لذلك ، فكل الدجالين ومُدَّعُو النبوة رأيناهم يُخفِّفون التكاليف عن أتباعهم ، فقديماً أسقطوا عن الناس الزكاة ، وحديثاً أباحوا لهم الاختلاط ، فلا مانع لديهم من الالتقاء بالمرأة والجلوس معها ومخاطبتها والخُلْوة بها والرقص معها ، وماذا في ذلك ونحن في القرن الحادى والعشرين ؟

فإنْ قالوا : ساحر ، نردُّ عليهم : نعم هو ساحر ، قد سحر مَنْ آمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنتم وتنتهى هذه المسألة ؟ إذن : هذه تُهَم لا تستقيم ، لا هو ساحر ، ولا هو مسحور ، إنه مجرد كذب وافتراء على أنبياء الله ، وعلى دعاة الخير فى كل زمان ومكان .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

وقولهم : ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء] إذن : فوجه اعتراضهم أن يكون النبى بَشَراً ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ولو بعث الله لهم مَلَكاً لجاءهم على صورة بشر ، وستظل الشُّبْهة قائمة ، فمن يدريكم أن هذا البشر أصله مَلَك ؟ ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا

﴿ لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ⑨ ﴾ [الأنعام]

فالمعنى : ما دام أن الرسول بشر ، لا يمتاز علينا فى شىء فنريد منه أنْ يأتينا بآية يعنى : معجزة تُثبت لنا صِدْقه فى البلاغ عن ربه ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑮٤ ﴾ [الشعراء]

ونلحظ أن الحق - تبارك وتعالى - ينتهز فرصة طلبهم لآية ومعجزة ، فأسرع إليهم بما طلبوا ، ليقيم عليهم الحُجة ، فقال بعدها :

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ⑮٥ ﴾

هذا إجابة لهم ؛ لأنهم طلبوا من نبيهم أنْ يُخرِج لهم من الصخرة[1] ناقة تلد سَقْبًا لا يكون صغيراً كولد الناقة ، إنما تلد سَقْبًا فى نفس حجمها ، فأجابهم ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ .. ⑮٥ ﴾ [الشعراء] يعنى : يوم تشرب فيه ، لا يشاركها فى شُرْبها شىء من مواشيكم .

﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ⑮٥ ﴾ [الشعراء] أى : تشربون فيه أنتم ، وكانت الناقة تشرب من الماء فى يومها ما تشربه كلّ مواشيهم فى يومهم ، وهذه معجزة فى حَدِّ ذاتها .

---

(١) كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيَّنوها بأنفسهم وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة ، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم ليؤمنن به وليتبعنه ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح إلى صلاته ودعا الله فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها . [تفسير ابن كثير ٢٢٨/٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) ﴾

يخبر الحق سبحانه رسوله بما سيكون ، وأن القوم لن يتركوا هذه الآية ، إنما سيتعرضون لها بالإيذاء ، فقال : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ .. (١٥٦) ﴾ [الشعراء] لكنهم تعدَّوْا مجرد الإيذاء والإساءة فعقروها .

ثم يتوعدهم : ﴿ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ (١٥٧) ﴾

قال(عقروها) بصيغة الجمع ، فهل اشتركتْ كل القبيلة فى عَقْرها ؟ لا بل عقرها واحد منهم ، هو قدار بن سالف[1] ، لكن وافقه الجميع على ذلك ، وساعدوه[2] ، وارتضوا هذا الفعل ، فكأنهم فعلوا جميعاً ؛ لأنه استشارهم فوافقوا .

﴿ فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ (١٥٧) ﴾ [الشعراء] وقال العلماء : الندم مقدمة التوبة.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (١٥٨) ﴾

---

(١) كان رجلاً أحمر أزرق قصيراً ، يزعمون أنه كان ولد زنية ، وأنه لم يكن من أبيه الذى ينسب إليه ، وهو سالف ، وإنما هو من رجل يقال له ضيان ، ولكن ولد على فراش سالف . [ابن كثير فى تفسيره ٢/٢٢٨] .

(٢) انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغووه غواة من ثمود ، فاتبعهما سبعة نَفَر ، فصاروا تسعة رهط ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) ﴾ [النمل] .

فإنْ قُلْتَ : كيف يأخذهم العذاب وقد ندموا ، والندم من مقدمات التوبة ؟

نعم ، الندم من مقدمات التوبة ، لكن توبة هؤلاء من التوبة التى قال الله عنها : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ .. (١٨) ﴾ [النساء]

إذن : ندموا وتابوا فى غير أوان التوبة ، أو : أنهم أصبحوا نادمين لا ندمَ توبة من الذنب ، إنما نادمون ؛ لأنهم يخافون العذاب الذى هددهم الله به إنْ فعلوا .

ثم تُختم هذه القصة بهذا التذييل الذى عرفناه من قبل مع أمم أخرى مُكذِّبة :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) ﴾

عزيز : يَغلب ولا يُغْلَب ، ومع ذلك هو رحيم فى غَلَبه .

ثم ينتقل الحق سبحانه إلى قصة أخرى من مواكب الأنبياء والرسل :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ[1] الْمُرْسَلِينَ (١٦٠)
إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) ﴾

فقال هنا أيضاً ﴿ أَخُوهُمْ .. (١٦١) ﴾ [الشعراء] لأنه منهم ليس غريباً

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٤) : « هو لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم عليه السلام ، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها ، التى أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة وهى مشهورة ببلاد الغور بناحية حيال بيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك » .

عنهم ، وليُحنّن قلوبهم عليه ﴿ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) ﴾ [الشعراء] إنكار لعدم التقوى ، وإنكار النفى يطلب الإثبات فكأنه قال : اتقوا الله .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾

وهكذا كانت مقالة لوط عليه السلام كما قال إخوانه السابقون من الرسل ؛ لأنهم يصدُرون جميعاً عن مصدر واحد .

ثم يخصُّ الحق سبحانه قوم لوط لما اشتُهروا به وكان سبباً فى إهلاكهم :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) ﴾

فكأنها مسألة وخصلة تفردوا بها دون العالم كله .

لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴾ [الأعراف]

أى : أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقذرة ؛ لأن الرجل إنما يأتى الرجل فى محل القذارة ، ولكنهم فعلوها ، فوَصْفه لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فظيعة للغاية .

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾